

## ولادة فكرة



نشرة "الإنسان" 2018/09/15

السنة الثانية عشرة - العدد: 4032

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

[yehiatrakhawy@hotmail.com](mailto:yehiatrakhawy@hotmail.com)

### مقدمة:

امتدادا لما أشرنا إليه سابقا، وبإصرار العناد والأمل: تم تخصيص اليوم "السبت" لمقتطفات من الكتابات التي لها علاقة دالة بالفروض التي تعتبر إرهابات أو أساس هذا الفكر الدائم النمو والتطوير.

\*\*\*\*\*

### ولادة فكرة<sup>(1)</sup>

"يخيل إلى أنه قبيض لى أن أكتشف أكثر الأمور بداهة"

سيجموند فرويد

فى قراءتى فى الطب النفسى ومايتعلق به كنت- ومازلت- أعانى من ظاهرة غريبة تماثل ظاهرة الألفة أو "الرؤية السابقة" Deja vu، وهى تعنى أن الأشخاص أو الأشياء التى نراها لأول مرة نشعر وكأننا رأيناها قبل ذلك، وقد لاحظت ذلك على نفسى منذ البداية، ولعل السبب الأول فيه هو أنى كنت فى أول تدريبي فى مهنة الطب النفسى كطبيب مقيم أجلس مع المرضى أكثر مما أقرأ فى الكتب، وربما لأن مسار دراستى العليا حينذاك كان يُلزمنى بالحصول على دبلوم الأمراض الباطنية أو لا قبل دبلوم التخصص فى الأمراض النفسية والعصبية، فأجلّ ذلك الاستغراق فى قراءة مراجع الطب النفسى حتى أتمّ دراسة الأمراض الباطنة أولا، وحين بدأت التحضير لدبلوم الأمراض النفسية والعصبية كان علىّ أن أقرأ المراجع الكاملة بشكل تحصيلى منظم، والقراءة للتحضير للامتحان غير القراءة للعلم أو للممارسة طبعا، وحين أخذت أقرأ كتابا جامعا مثل كتاب Mayer Gross أحسست وكأنى قرأته قبل ذلك، ولم يؤكد لى العكس إلا أن صفحاته كانت خالية من التخطيط والتعليقات (والشخبة) التى أشوه بها - أو أزين بها- ما أقرأ، وأحسست حينذاك أن معاشتى لأصدقائى المرضى كانت معاشة جادة وعميقة حتى إذا ما قرأت فيما بعد أعراضهم وتصنيف أمراضهم أشعر بما أقررت به حالا، أى كأننى قرأتهم قبل أن أقرأ المكتوب، ولا أجد فى ذلك غرابة مهما اختلفت المدارس.

وكان موقفى تجاه المدارس المتعارضة موقف المتقبّل للتناقضات، لا قهرا بل محاولة إحاطة، وكنت أتعجب من ظاهر التناقضات بين المدارس، وأبحث كيف أنها يمكن أن تتفق فى العمق إذا ما انتصرنا على نظرة التعصب لكل مدرسة، فكنت أقبل من كل ما يوافق إحساسى وفهمى، ولعل هذا هو الموقف الذى يسمى الموقف الانتقائى Eclectic، وهو أن ينتقى الممارس من كل طريقة جانبا ثم يؤلف بينها مع ما يتفق مع هدفه وتطبيقاته، وهو موقف فيه من الحرية بقدر ما فيه من التساهل والهرب، يلجأ إليه من يعلم الكثير ويمارس الصدق مع نفسه فلا يقبل إلا ما يوافق غرضه- وهو هنا خدمة

فى قراءتى فى الطب النفسى ومايتعلق به كنت- ومازلت- أعانى من ظاهرة غريبة تماثل ظاهرة الألفة أو "الرؤية السابقة" Deja vu

كنت فى أول تدريبي فى مهنة الطب النفسى كطبيب مقيم أجلس مع المرضى أكثر مما أقرأ فى الكتب

حين أخذت أقرأ كتابا جامعا مثل كتاب Mayer Gross أحسست وكأنى قرأته قبل ذلك، ولم يؤكد لى العكس إلا أن صفحاته كانت خالية من التخطيط والتعليقات (والشخبة) التى أشوه بها - أو أزين بها- ما أقرأ

أحسست حينذاك أن معاشتى لأصدقائى المرضى كانت معاشة جادة وعميقة حتى إذا ما قرأت فيما بعد أعراضهم وتصنيف أمراضهم أشعر بما أقررت به حالا، أى كأننى قرأتهم قبل أن أقرأ المكتوب

كان موقفى تجاه المدارس المتعارضة موقف المتقبّل للتناقضات، لا قهرا بل محاولة إحاطة

كنت أقبل من كل ما يوافق إحساسى وفهمى، ولعل هذا هو الموقف الذى يسمى الموقف

الانتقائي Eclectic، وهو أن ينتقى الممارس من كل طريقة جانباً ثم يؤلف بينها مع ما يتفق مع هدفه وتطبيقاته

هو موقف فيه من الحرية بقدر ما فيه من التساهل والمربح، يلجأ إليه من يعلم الكثير ويمارس الصدق مع نفسه فلا يقبل إلا ما يوافق عرضه

كنت ألبأ لهذا الموقف الانتقائي ولكنى أسعى إلى تخطيه في نفس الوقت

كلما حاولت الارتباط بمدرسة من المدارس لم أنجح، إذ أن عطشي للعلم كان عظيماً، وتفتحي للحرية كان ملها، ولم تنجح أي مدرسة في أن تروى ظمئى أو تطلق حريتى أو تتفق مع نظام محلى

كانت حجتى دائماً أنهى طبيبى، ومهمنى الأولى هى أن أخدم المرضى، والمرضى لا يهتمون إن كنت "فرويدياً" أو "يونجياً" أو "سلوكياً محدثاً" أو "بافلوفياً"، ولكن يهمل أنه إنسان يعانى، ووظيفة الطبيب النفسى أن يساعده فى أن ينتصر على ضعفه ومعاناته ليستقيم بعد ذلك على الطريق

الصراع بين مدارس علم النفس صراع لا هوادة فيه (3)، وهناك محاولات حديثة للتوفيق لصالح الإنسان، ولكن التعصب مازال على أشده والمعارك مستمرة فى كل مكان

هى تصل إلى من ينكر وجود اللاشعور أصلاً، كما تصل فى الناحية الأخرى إلى من ينكر الأساس البيولوجى للأمراض النفسية تماماً

إذا رفضت الفكرة ابتداءً قلت معرفتك بالأصول المشتركة، أما إذا قبلت كل وجهة صادق ومشاهدة علمية، ثم بحثت عن مكان ملائم لأى

المريض- ويكون حين ذلك "اختلاف المدارس رحمة"، كما قد يلجأ إليه الذى لا يعلم شيئاً.. فيروح يفعل مبادلته تحت ستار اختلاف المدارس مطمئناً إلى أن التبرير على مايفعل ممكن، وبذلك لايتقيد باتجاه معين ولن يعدم أن يجد تفسيراً للشئ وضده، وهنا يكون اختلاف المدارس خطراً ونقمة.. لأنه باب للهروب وليس دعوة للصدق وكأنه يستلهم حكمة صلاح جاهين فيقول قياساً: "إفعل أى شئ تقرره، وسوف تجد نظرية تبرره"!! (2) لذلك فقد كنت ألبأ لهذا الموقف الانتقائي ولكنى أسعى إلى تخطيه فى نفس الوقت، وكلما حاولت الارتباط بمدرسة من المدارس لم أنجح، إذ أن عطشي للعلم كان عظيماً، وتفتحي للحرية كان ملها، ولم تنجح أى مدرسة فى أن تروى ظمئى أو تطلق حريتى أو تتفق مع نظام عقلى، وكانت حجتى دائماً أنهى طبيبى، ومهمنى الأولى هى أن أخدم المرضى، والمرضى لا يهتمون إن كنت "فرويدياً" أو "يونجياً" أو "سلوكياً محدثاً" أو "بافلوفياً"، ولكن يهمل أنه إنسان يعانى، ووظيفة الطبيب النفسى أن يساعده فى أن ينتصر على ضعفه ومعاناته ليستقيم بعد ذلك على الطريق، فإذا ما فعل فإنه ينطلق إلى السلامة والتطور دون أن يلتفت إلى ما فى عقل الطبيب من معلومات أو معتقدات أو مدارس.

### صراع لا هوادة فيه:

والصراع بين مدارس علم النفس صراع لا هوادة فيه (3)، وهناك محاولات حديثة للتوفيق لصالح الإنسان، ولكن التعصب مازال على أشده والمعارك مستمرة فى كل مكان، وهى تصل إلى من ينكر وجود اللاشعور أصلاً، كما تصل فى الناحية الأخرى إلى من ينكر الأساس البيولوجى للأمراض النفسية تماماً، وكان موقفى إزاء هذا وذاك أن أقبل إيجابيات كل منها ولا أجد فى ذلك تعارضاً، ولا يجد المريض معنى تذبذباً أيضاً، وكنت دائماً أشعر أن هذا هو الطريق الذى سيوصلنى إلى الأصبوب... يوماً ما، لأنك إذا رفضت الفكرة ابتداءً قلت معرفتك بالأصول المشتركة، أما إذا قبلت كل وصف صادق ومشاهدة علمية، ثم بحثت عن مكان ملائم لأى من ذلك فى إطار كامل فأنت تهينى للحمل السليم... الذى قد ينتهى بولادة مخلوق جديد.

و حين حضرت "هنرى إي Henry Ey (4)" فى لقاءاته الأسبوعية فى مستشفى سانت أن فى باريس وتتبعته فكرته عن التزاوج الديناميكي- وليس الميكانيكي- بين الجهاز العصبى وتطور الإنسان- كفرد وكنوع- أحسست أنهى قريب مما أريد، ولكنه ليس كل ما أريد.

و حين توصلت إلى تصنيف الصحة النفسية تصنيفاً تطورياً (راجع الفصل الثالث) حاولت أن أربطه بتقسيم جديد للأمراض النفسية لم يشف غليلى، وأحسست أن الفكرة تثير جانباً من الطريق وليس كل الطريق، وقد كتبت أول نسخة من المقال عن الصحة النفسية فى فرنسا وحين عرضته على صديقى "بيير برينيتى Pierre Brunetti" المهتم والمتخصص فى الطب النفسى الاجتماعى (5) فى شكله الأول قال "ماذا تريد أن تقول؟" قلت "ما قرأت" قال "لا.. يخيلى إلى أنك تريد أن تقول شيئاً أكبر.. وعليك أن تهيب حياتك لهذا الشئ حتى تقوله بشكل كامل" وحين سألته عن تصوره لهذا الشئ، قال: "ستعرفه يوماً ما"!!!

وظننت أنه يستعمل طريقة أوروبية مهذبة ليقول أن هذا المقال ناقص، أو غير واضح، وأخذت الأمر على هذا الاعتبار، ولكن كلماته ظلت ترن فى أذنى "شئ لا بد أن أهب حياتى له"!!، وقد بلغنى صدق حدسه بعد ذلك.

عشت أحمل المتناقضات فى عقلى، وأقبل منها بعض التفهيمات التى تعيننى على المسيرة مع المرضى، ولكنى ظللت قلقاً لا أهدأ، أبحث عن هذا الشئ بغير وعى ظاهر غالباً، ولا أرضى عن فرعى ولا عن وظيفتى كطبيب يمارس عمله "كالمطيباتى" تعينه الكيمياء والتصنيفات المتجمدة، ولكنه مغمض العينين فى كل حال، فإذا فتحهما سلك سبيل التحليل والتبرير والتفسير، وحين قرأت آخر تطورات التفسير الأحدث للتحليلين النفسيين (المدرسة الانجليزية خاصة) ووجدتهم ينتصرون على فرويد ويتخطونه، أحسست أنهى أقترب أكثر من الفكر التحليلى رغم أنهى أرفض تماماً بؤدهم عن

الأسس البيولوجية كعامل جوهري في إحداث المرض النفسي.

وعشت حيرتى أياما وشهورا وسنين.

المخاض بالسلامة:

وفى يوم الاثنين الثانى عشر من أبريل الماضى (1971)، وكنت جالسا مع مريض صديق بعيادتى

الخاصة، أستمع إليه ولا أستمع إليه، وجدت أن الأمور المتناقضة جميعا قد ارتبطت ببعضها البعض

فجأة، وأن كل الأضداد (أو معظمها) استدارت من موقف المواجهة إلى موقف التماسك والتآلف،

وارتبط الانسان الفرد بالإنسان النوع، واستقر الأنا الهارب والأنا الناكس والأنا المنقسم (6) فى قاع

خلايا المخ، وصعد فرويد - عندى - إلى أعلى طبقات النفس وأكثرها سطحية، وكأن كل شئ أشرق

فجأة... وتفاهمت الكيمياء مع الكهرباء مع التحليل النفسى مع التطور.

وتعجبت من كل هذا.. فرحت به، وخفت منه فى نفس الوقت.

واتصلت تليفونيا بزميل صديق، فلم أجده..

وانطلقت أشرح أفكارى للصديق المريض أمامى - بلغة قريبة منه ومن مشكلته- وكان للجديد وقع

عنيف على... وقال لى هذا الصديق (المريض) بعد شرحى له الخطوط العريضة لما عرض لى: "ما

انا عارف"، وتعجبت، وتذكرت حقيقة قديمة وهى أن الأصدقاء المرضى يعرفون النفس أدق وأصدق

من كل النظريات، وذهبت آخر النهار لزيملى الصديق ومعى زوجتى... ولم أجده، ولم أستطع

الصمت، ودخلت كما اعتدت معه دون وجوده، وأخرجت ورقا من مكتبه وانطلقت لأكثر من ساعة

أشرح لزوجتى الفكرة وأرسمها على الورق وأربط الأشياء ببعضها البعض.. ولا أعرف إن كانت قد

أدركت التفاصيل أم لا.. ولكنها كانت تتابع أفكارى فى الأغلب بقدر من الحب يشجعنى أن أقول مالا

يعنيها، بشكل خاص، دون حرج.

وحين حضر زميلى وزوجته لم أستطع أن أعيد ما قلت، وألمحت له بالعناوين ثم توعدنا أن أشرح

له الفكرة فيما بعد..

وخلال أيام كنت أعيد القصة عليهما مع زوجتى من أولها لآخرها... وسألتهم هل هناك جديد؟

فقالوا: يبدو ذلك...

وفى ليلة تالية حلمت أنى أكتب خطابا لصديقى بيير برنيتى فى باريس الذى قال تعليقه عن الشئ

الـ "ما" الذى ينبغى أن أهب حياتى له، واستيقظت فى جوف الليل وأخذت أكتب له وأكتب حتى

أكملت أكثر من عشر صفحات، وأرسلتها فوراً دون أن أحفظ بنسخة، ولم يرد (ولا أدري حتى الآن

إن كان خطابى هذا قد وصله، وخجل أن يُسْفَه آرائى فى الرد، أم أن رجال البريد أحسوا بتقل وزنه

فتخففوا من جهد توصيلها).

واستمررت بعد ذلك أمارس المهنة، ولكنى وجدت أن الأسماء القديمة تعوق فهمى أكثر وأكثر، وأن

الفكرة الجديدة تلح علىّ فى أن أبحث عن أسماء جديدة، وفعلت...

وجدت أن هذه الأفكار أكثر تقبلاً وفهما من التعقيدات الشديدة والألغاز التى كنا نحاول أن نفهم

بها الانسان المريض ووجدت أنه حتى العلاج يمكن أن يأخذ طابعا آخر ومراحل أخرى، ليصبح

أوضح وأبسط وأسرع وأكثر ترابطا.

وطبعا شككت فى كل ذلك، ولم يشكّ فيه مرضاى ولا زملائى (الصغار منهم أساسا) وقلت أبدأ،

هذه صحوة من صحوات الحيرة أردت بها أن أهدئ من حيرتى فترة ما، وأن هذه الفكرة موجودة

من قديم وقد انجلت فجأة... هذه هى كل الحكاية... لا بد أنى قرأتها يوما.. أو أنى سأقروها يوما...

وذهبت أبحث عنها فى كل ما أستطيع أن أصل إليه مما قرأت، ورحت أناقشها مع كل من أثق

فى سعة اطلاعهم، ووجدت جزئياتها موجودة فعلا، ولكنها ليست موجودة إطلاقا ككل متكامل...، قال

بها "فرويد" عندما تحدث عن غريزة الموت والحياة، وقال بها يونج وهو يغوص فى اللاشعور

الجمعى، وفى حديثه عن تاريخ الانسان النوع وضرورة تحقيق ذاته، وقال بها "إريك اريكسون" وهو

من ذلك فى إطار كامل فأنتهى  
تصمى: للحمل السليم... الذى قد  
ينتهى بولادة مخلوق جديد

حين حضرت "هنرى إي"  
Henry Ey (4) فى لقاءاته  
الأسبوعية فى مستشفى سانت  
آن فى باريس وتتبعته فكرته  
عن التزاوج الديناميكي -  
وليس الميكانيكي - بين الجهاز  
العصبي وتطور الإنسان - كفرد  
ونوع - أحسست أنى قريب  
مما أريد، ولكنه ليس كل ما  
أريد

حين توصلت إلى تصنيفه الصحة  
النفسية تصنيفا تطوريا (راجع  
الفصل الثالث) حاولت أن  
أربطه بتقسيم جديد للأمراض  
النفسية لم يشفه تحليلي،  
وأحسست أن الفكرة تثير جانبا  
من الطريق وليس كل الطريق

يخيل إلى أنك تريد أن تقول  
شيئا أكبر.. ولعلك أن تصب  
حياتك لهذا الشئ حتى تقوله  
بشكل كامل" وحين سألته عن  
تصوره لهذا الشئ، قال:  
"ستعرفه يوما ما"!!!

عشت أحمل المتناقضات فى  
مخلى، وأقبل منها بعض  
التلفيفات التى تعيننى على  
المسيرة مع المرضى، ولكنى  
ظللت قلقل لا أهدأ. أبحث عن  
هذا الشئ، بغير وعى ظاهري  
خالبا

حين قرأت آخر تطورات  
التفسير الأحدث للتحليلين  
النفسيين (المدرسة الانجليزية  
خاصة) ووجدتهم ينتصرون على  
فرويد ويتخطونه

أحسست أنى أقترب أكثر من  
الفكر التحليلي رغم أنى أرفض  
تماما بعضهم عن الأسس  
البيولوجية كعامل جوهري فى  
إحداث المرض النفسى

وجدت أن الأسماء القديمة  
تعوق فهمى أكثر وأكثر، وأن

الفكرة الجديدة تلغ على في  
أن أبحث عن أسماء جديدة،  
وعلقت

وجدت جزئياتها موجودة فعلا،  
ولكنها ليست موجودة إطلاقاً  
ككل متكامل

قال بما "فرويد" عندما تحدث  
عن تحريضة الموت والحياة، وقال  
بما يونج وهو يخصص في  
الاشعور الجمعي، وفي حديثه  
عن تاريخ الإنسان النوع  
وضرورة تحقيق ذاته

قال بما "إريك اريكسون" وهو  
يضع الإنسان في تطوره  
الاجتماعي وكأنه وحدة أناس  
يواصلون التتابع الواحد إثر  
الأخر

قال بما ساندور رادو، وإريك  
فروم، وكارن هورني  
وفيربرن، وجنترب، وهنري  
إي، وزرادشت، ونيتشه،  
وبرجسون، وبرناردشو، وغالبا  
غيرهم ممن لا أعرفهم!

يضع الانسان في تطوره الاجتماعى وكأنه عدة أناس يواصلون التتابع الواحد إثر الآخر، وقال بها  
ساندور رادو، وإريك فروم، وكارن هورنى وفيربرن، وجنترب، وهنرى إي، وزرادشت، ونيتشه،  
وبرجسون، وبرناردشو، وغالبا غيرهم ممن لا أعرف!

ولم يقلها أحد.

وكنت حين أقرأ بالانجليزية (والفرنسية نادرا) ولا أجد هذه الفكرة، أقول لنفسى لابد أنها كتبت  
بالألمانية، . فهناك الأصالة والتطور وأنا لأعرف الألمانية، إذن فلا جديد، ولكنه بالرغم منى، بدا لى  
كل شئ جديدا.

(البقية السبب القادم: غالبا)

- [1] من كتاب "حيرة طبيب نفسى" (1972) الذى تم تحديث بعضه فى كتاب ("مستويات الصحة  
النفسية" من مأزق الحيرة إلى ولادة الفكرة) منشورات جمعية الطب النفسى التطورى (2017)،  
والكتاب يوجد فى الطبعة الورقية فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة  
النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم،  
كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط [www.rakhawy.net](http://www.rakhawy.net)

- [2] حكمة صلاح جاهين الأصلية "فعل أى شىء تقرره، وستجد مثلا يبرره"

- [3] سوف أعود إلى ذلك تفصيلا فى كتابى اللاحق عن "الطب النفسى بين المثالية السطحية،  
والأيديولوجيا المغلقة". (تحت الطبع)

- [4] هنرى إي (1900 - 1977)، رائد الطب النفسى من منظور تطورى نيوروبولوجى  
انطلاقا من "هوجلج جاكسون" الذى تناول الجهاز العصبى كله بترتيب تطورى متصاعد متكامل معا.  
- [5] هو زميل فرنسى جميل استضافنى بمكتبه الذى كان يسجل فيه أبحاثه فى الطب النفسى  
الاجتماعى، وكان يفخر بأخواله الطليان (كانت أمه طليانية) ويعتبر أن إبداعه نابع من هذا الأصل أكثر  
من جذوره الفرنسية (الأب) وقد استضافنى فى بيته كثيرا، كما استضافنى فى كوخه فى فالورسين فى  
جبال الألب مع أسرته لأكثر من أسبوع.

- [6] هذه الأبجدية من الفكر التحليلى الجديد المدرسة الانجليزية: مدرسة العلاقة بالموضوع، وهى  
أبجدية مفيدة، إلا أننى تجاوزتها بعد ذلك، منذ زمن ، وحتى الآن: 2017. وأنظر (نشرة 4-6-  
2016" الفرق بين "الموقع" و"الطور" و"الموقف" [www.rakhawy.net](http://www.rakhawy.net))

إرتباط كامل النص:

[www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD150918.pdf](http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD150918.pdf)

\*\*\* \*\*

## شبكة العلوم النفسية العربية

نحن تعاون عربي رقبيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

شعنا: إنجازات خمسة عشرة عاما من العطاء "

( التأسيس العام 2000 الاطلاق على الوبج العام 2003 )

الكتاب السنوي الخامس

تحميل الكتاب

- التحميل من موقع " شبكة العلوم النفسية العربية"

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>